AIJLLS |MARCH 2025 | VOL 9 ISSUE 19
مجلة اللسان الدولية / العدد التاسع عشر (مارس 2025م/ 1446 هـ)
الترقيم الدولي ISSN 2600-7398

ظلال الصورة الفنية وتوظيفها في التحليل الفني

مصطفى عمار عبد الغفار الششتاوي

Elsheshtawy1986@gmail.com

الأستاذ المشارك د./ عبد الله رمضان

الأستاذ المشارك د./ سيد سالم

جامعة المدينة العالمية – كلية اللغات

ملخص البحث: تهدف هذه الدراسة إلى تحليل مفهوم الظل ودوره المحوري في تشكيل الصورة الفنية وتأويلها، مع التركيز على التداخلات المعرفية والجمالية بين فن التصوير البصري والتصوير الأدبي. اعتمد البحث منهجًا نظريًا استكشف من خلاله مفهوم الظل في سياقات متنوعة (لغوية، دينية، فلسفية، ونفسية)، وميّز بينه وبين الخيال التخييلي، كما صنف أنماطه المختلفة مطبقًا ذلك على نماذج من الشعر العربي الحديث لمحمد سحمان. توصل البحث إلى أن الظل ليس مجرد غياب للضوء، بل هو مكون فاعل يحمل دلالات عميقة ويسهم في بناء الأبعاد الرمزية والنفسية للأعمال الفنية. كما كشف البحث عن أنماط الظلال (الممتدة، والقصيرة، والمماثلة، والمغايرة) كأدوات تحليلية فعالة. وتؤكد الدراسة على أهمية العناية بتحليل الظلال في الدراسات النقدية، وتدعو إلى تطوير أدوات منهجية متعددة التخصصات لفهم أعمق للصورة الفنية.

الكلمات المفتاحية: الظل، الصورة الفنية، التحليل الفني، التصوير، الشعر العربي.

Abstract: This study aims to analyze the concept of shadow and its pivotal role in shaping and interpreting the artistic image, focusing on the cognitive and aesthetic overlaps between visual and literary depiction. The research adopted a theoretical approach, exploring the concept of shadow in various contexts (linguistic, religious, philosophical, and psychological), distinguishing it from imagination, and classifying its different patterns with application to modern Arabic poetry by Mohammed Sahman. The study found that shadow is not merely an absence of light but an active component carrying deep significations and contributing to the symbolic and psychological dimensions of artistic works. The research also identified shadow patterns (extended, short, mimetic, and contrasting) as effective analytical tools. The study emphasizes the importance of analyzing shadows in critical studies and calls for developing interdisciplinary methodological tools for a deeper understanding of the artistic image.

Keywords: Shadow, Artistic Image, Technical Analysis, Depiction, Arabic Poetry.

المقدمة: تُعد الصورة الفنية من أبرز الأدوات التعبيرية التي يستخدمها المبدعون في مختلف الفنون، سواء كانت بصرية كالتصوير الفوتوغرافي والرسم، أو لفظية كالشعر والنثر. وقد شغلت الصورة الفنية حيزًا كبيرًا من اهتمام النقاد والباحثين، الذين سعوا إلى تفكيك بنيتها وكشف آليات اشتغالها وتأثيرها في المتلقي. غير أن معظم الدراسات النقدية ركزت على العناصر الظاهرة في الصورة، كالألوان والأشكال والتراكيب اللغوية، متجاهلة إلى حد كبير عنصرًا لا يقل أهمية، ألا وهو "الظل".

إن عالم الصورة الفنية، بسحره الأخاذ وثرائه الدلالي، يظل ميدانًا رحبًا للاستكشاف والتأويل، يستدعي من الناقد والمتأمل أدواتٍ تتجاوز السطح الظاهر لتغوص في أعماق التشكيل الجمالي. ومن بين هذه الأدوات، تبرز "الظلال" كعنصر فني لا يقل أهمية عن الضوء، بل ربما يفوقه في بعض السياقات قدرةً على الإيحاء والتلميح، وفتح نوافذ على عوالم خفية من المعنى والشعور.

فالظل، هذا المفهوم الذي يبدو للوهلة الأولى بسيطًا ومباشرًا، يحمل في طياته طبقات متعددة من الدلالات تتراوح بين المادي المحسوس والمجرد الرمزي. إنه ليس مجرد غياب للضوء، بل هو حضور بكيفية أخرى، حضور يمنح الصورة عمقًا وبعدًا، ويسهم في تشكيل إيقاعها البصري وتوجيه عين المتلقي. وفي سياق تحليل الصورة الفنية، سواء كانت لوحة تشكيلية، أو لقطة فوتوغرافية، أو حتى صورة شعرية مرسومة بالكلمات، يغدو الظل مفتاحًا لفهم البنية الجمالية واستنطاق الرسائل الكامنة.

إشكالية الدراسة:

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية محورية تتمثل في غياب رؤية نقدية متكاملة لدور الظل في تشكيل الصورة الفنية وتأويلها. فالظل، رغم حضوره الدائم في الأعمال الفنية والأدبية، ظلَّ مهمشًا في الدراسات النقدية، أو مختزلًا في وظيفته التقنية البسيطة كنتيجة حتمية للضوء. وهنا تبرز التساؤلات الآتية:

أسئلة الدراسة:

1. ما المفهوم الشامل للظل الذي يتجاوز البعد التقني البسيط إلى الأبعاد الفلسفية والنفسية والرمزية؟
2. كيف يمكن توظيف الظل كأداة تحليلية فاعلة في مقاربة الصورة الفنية، سواء في الفنون البصرية أو الأدبية؟
3. ما هي أنماط الظلال المختلفة وكيف تسهم في تشكيل المعنى وتوجيه التأويل؟
4. ما العلاقة بين الظل والخيال، وكيف يمكن التمييز بينهما في سياق التحليل النقدي؟

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. تقديم مفهوم شامل للظل يستوعب أبعاده المتعددة (اللغوية، الدينية، الفلسفية، النفسية، الفنية).
2. العلاقة التكاملية بين فن التصوير الفوتوغرافي والتصوير الفني الأدبي، وتحديد العناصر المشتركة بينهما.
3. التمييز بين مفهومي الظل والخيال، وتوضيح خصوصية كل منهما في سياق الإبداع الفني.
4. تصنيف أنماط الظلال المختلفة (الممتدة، القصيرة، المماثلة، المغايرة) وتحديد وظائفها الجمالية والدلالية.
5. تطبيق المفاهيم النظرية على نماذج من الشعر العربي الحديث، وتحديدًا شعر محمد سحمان، لإثبات فاعلية الظل كأداة تحليلية.
6. تطوير أدوات منهجية متعددة التخصصات لتحليل الصورة الفنية بشكل أعمق وأشمل.

أهمية الدراسة:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من الاعتبارات الآتية:

1. الأهمية النظرية: تقدم الدراسة إطارًا نظريًا متكاملًا لمفهوم الظل، يجمع بين مختلف المقاربات (اللغوية، الدينية، الفلسفية، النفسية، الفنية)، مما يثري المكتبة النقدية العربية بمفهوم جديد يمكن توظيفه في تحليل الأعمال الإبداعية.

2. الأهمية المنهجية: تقترح الدراسة منهجية تحليلية جديدة تعتمد على الظل كأداة إجرائية في مقاربة الصورة الفنية، مما يفتح آفاقًا جديدة للتحليل النقدي يتجاوز المناهج التقليدية.

3. الأهمية التطبيقية: تقدم الدراسة نماذج تطبيقية لكيفية توظيف مفهوم الظل في تحليل الصور الفنية في الشعر العربي الحديث، مما يساعد الباحثين والنقاد على تطبيق هذه المنهجية في دراساتهم المستقبلية.

4. الأهمية الثقافية: تسهم الدراسة في إثراء الوعي الجمالي والنقدي بأهمية العناصر غير المرئية أو المهمشة في الأعمال الفنية، وتدعو إلى إعادة النظر في طرق تلقينا وتأويلنا للفن والأدب.

منهجية الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على منهج نظري-تطبيقي يجمع بين المنهج الوصفي التحليلي لرصد مفهوم الظل في مختلف السياقات، والمنهج المقارن لتحديد أوجه التشابه والاختلاف بين فن التصوير الفوتوغرافي والتصوير الفني الأدبي، والمنهج التطبيقي لاختبار فاعلية الظل كأداة تحليلية على نماذج من الشعر العربي الحديث، والمنهج التكاملي الذي يستفيد من مختلف المقاربات النقدية في تحليل الصورة الفنية وظلالها.

حدود الدراسة:

تتحدد هذه الدراسة بالحدود الموضوعية المتمثلة في التركيز على مفهوم الظل ودوره في تشكيل الصورة الفنية، والحدود الزمانية المتمثلة في الفترة المعاصرة مع الاستفادة من التراث النقدي والفلسفي والديني في تأصيل مفهوم الظل.

دراسات سابقة:

تستند هذه الدراسة إلى مجموعة من الدراسات السابقة، أبرزها دراسة فاطمة الوهيبي "الظل: أساطيره وامتداداته المعرفية والإبداعية"، وكتاب صلاح الخالدي "التصوير الفني في القرآن الكريم".

غير أن هذه الدراسة تتميز عن سابقاتها بتقديم مقاربة متكاملة لمفهوم الظل تجمع بين الأبعاد النظرية والتطبيقية، وتوظف الظل كأداة تحليلية فاعلة في مقاربة الصورة الفنية.

وعليه، جاء هذا البحث مقسمًا إلى أربعة مباحث:

- المبحث الأول: التداخل بين فن التصوير والتصوير الفني.

وفيه نسعى لتمييز الحدود والروابط بين الممارسة التقنية للتصوير وبين البعد الإبداعي للتصوير الفني.

- المبحث الثاني: مفهوم الظل كرافد للتصوير الفني.

حيث نتناول الظل كمفهوم غني بالإيحاءات، مستعرضين أبعاده اللُغوية والفلسفية والنفسية، وصولًا إلى دوره في إثراء التصوير الفني.

- المبحث الثالث: الفرق بين الظل والخيال والتخييل.

وهو مبحث يهدف إلى فك الاشتباك بين هذه المفاهيم المتجاورة، وتحديد خصوصية كل منها في سياق الإبداع الفني.

- المبحث الرابع: أنماط الظل وتوظيفها في تحليل الصورة الفنية.

وفيه نستعرض الأنماط المختلفة للظلال، ونقدم نماذج تطبيقية لكيفية استخدامها كأدوات إجرائية في تحليل الصورة الفنية.

ومن خلال هذه الدراسة، يأمل الباحث أن يقدم رؤية متكاملة حول مفهوم الظلال وأهميتها، ليس فقط كعناصر تكوينية في الصورة، بل كأدوات تحليلية عميقة تمكننا من الولوج إلى عوالم الصورة الفنية واستكشاف طبقاتها الدلالية المتعددة.

المبحث الأول: التداخل بين فن التصوير والتصوير الفني

بين يدي فن التصوير

فن التصوير "مرادف لفن الرسم القديم فمن خلال العدسة يقوم المصور بوضع تصوره إلى اللحظة الملتقطة من خلال عدسته وهو عملية إنتاج صور بواسطة تأثيرات بصرية"[1] يعد من أهم الفنون البصرية التي يعتمد عليها الإنسان المعاصر في توثيق حياته وتسجيل ذكرياته. إلا أن ما يجهله الكثيرون أن نجاح الصورة الفوتوغرافية يعتمد بشكل كبير على توظيف عناصر فنية وتقنية محددة، من بينها الضوء والظل اللذين يلعبان دورا محوريًا في تكوين الصورة وإبراز جمالياتها وأبعادها الفنية.

تاريخ فن التصوير (الفوتوغرافي)

يبدأ تاريخ فن التصوير الفوتوغرافي عمليًا في القرن التاسع عشر، عندما تمكن المصورون الأوائل من التقاط الصور باستخدام تقنية الكاميرا المظلمة وطبع الصور على أسطح حساسة للضوء، ومع مرور الوقت، تطورت التقنيات المستخدمة في التصوير، مما أدى إلى تحسين جودة الصور وتنوع استخداماتها.

ومن أبرز المحطات في تاريخ التصوير الفوتوغرافي هو "توصل المخترع الفرنسي جوزيف نيسفور نيبس (1765-1833م) إلى حل مشكلة تثبيت الصورة باستخدام نوع خاص من القار يتصلب ويغدو لونه أبيض عند تعريضه لضوء الشمس ... وكانت النتيجة حصول أول صورة ضوئية شمسية لمنظر طبيعي في التاريخ عام 1827م"[2]. ومنذ ذلك التاريخ ظهرت تقنيات أخرى مهمة مثل التصوير الملون والتصوير الرقمي، التي غيرت مسار هذا الفن وأضافت له أبعادًا جديدة.

أدوات التصوير الفوتوغرافي

تعتمد عملية التصوير الفوتوغرافي على مجموعة من الأدوات الأساسية التي تلعب دورًا محوريًا في إخراج الصورة، ومن أهمها:

- **الكاميرا:** الكاميرا هي جهاز بصري يُستخدم لالتقاط الصور الفوتوغرافية، ويقوم بتركيز الضوء المنعكس من المشهد عبر العدسة onto وسط حساس للضوء—سواء كان فيلمًا تقليديًا أو حساسًا إلكترونيًا [3].
- **العدسات:** وتختلف العدسات في البعد البؤري والسرعة وجودة الصورة، وتشمل العدسات ذات الزاوية الواسعة، والعدسات المقربة، والعدسات ذات البعد البؤري المتغير، والعدسات الماكرو [4].
- **الحوامل والمثبتات:** وتساعد على تثبيت الكاميرا ومنع اهتزازها أثناء التصوير، خاصة في الإضاءة الخافتة وسرعات الغالق البطيئة، وتشمل الحوامل ثلاثية القوائم والأحادية والمرنة .
- **وحدات الإضاءة:** وتستخدم لتوفير مصادر ضوء إضافية أو موجهة، وتشمل الفلاشات الخارجية، والمصابيح المستمرة، والعاكسات، والمظلات والمرشحات.
- **شاشات ومعينات الرؤية:** وتساعد المصور على معاينة الصورة وضبط إعدادات التصوير.

---

(1) البرغوثي، سامح بشير، **التصوير الفوتوغرافي بين العلم والفن**، ط1، ص9.

(2) المرجع السابق، ص10.

(3) مشخص، عبد العزيز، **أساسيات التصوير الفوتوغرافي**، ط1، ص12

(4) البرغوثي، سامح بشير، **التصوير الفوتوغرافي بين العلم والفن**، ط1، ص25.

أهمية الضوء والظل في التصوير الفوتوغرافي

الضوء والظل هما عنصران أساسيان في تصوير الصور الفوتوغرافية، حيث يلعب كل منهما دورًا هامًا في تحديد جمالية الصورة وإيصال رسالتها. يعتبر النور مصدر الطاقة الأساسي في التصوير الفوتوغرافي، حيث يساعد في تحديد التباين والألوان وإبراز التفاصيل. بينما يعمل الظل على إضافة عمق وبعد للصورة، ويساعد في خلق أجواء مختلفة وإبراز الأشكال والملمس.

"أما الضوء والظل فيعدان من أهم العناصر التشكيلية في فن التصوير؛ فالضوء يكشف الأشكال والألوان ويولد التباينات، بينما يُسهم الظل في إظهار البُعد والعمق وتحديد حدود الشكل ضمن الإضاءة المناسبة."[(1)].

وهما عنصران يكمل كل واحد منهما الآخر فلا ظل بلا ضوء ولا ضوء بلا ظل حتى لو كانت الإضاءة عمودية على الجسم فالظل يكون محبوسا في المجسم لتعامد الضوء على الجسم.

"وتتوقف قوة الشكل الناتج من تأثيرات الظل على تأثيره الجاذب للروح والعقل... يعد الظل منذ مطلع القرن الرابع عشر عنصراً أساسياً في فن التصوير يستوجب الدراسة والإتقان... فالضوء في فن التصوير يأتي من مصدر خارجي أو داخلي، والظل الناتج عنه يقرّب الأشكال من أحجامها الأصلية في الواقع، وينشئ البعد الثالث..." [(2)].

وتكمن أهمية الظلال في:

- تجسيد الأحجام والأبعاد: يساعد التباين بين الضوء والظل على إظهار التجسيم والعمق في الصورة،
- التأثير على المزاج العام: يمكن للإضاءة القوية أو الخافتة، والظلال الحادة أو الناعمة، أن تخلق جوًا معينًا في الصورة، كالفرح أو الحزن، الدفء أو البرودة، الغموض أو الوضوح.
- توجيه انتباه المشاهد: يستخدم الفنانون الضوء والظل لتسليط الضوء على العناصر الرئيسة في الصورة، وجذب نظر المتلقي إليها، وتقليل أهمية العناصر الثانوية.
- التعبير عن الحالات النفسية: تساهم طريقة توزيع الضوء والظل على ملامح الوجه أو الجسد في الكشف عن المشاعر الداخلية للشخصية، وعكس حالتها المزاجية أو الذهنية.

الظل في فن التصوير الفوتوغرافي

الظل هو النتيجة الحتمية لوجود الضوء، فأينما يكون هناك جسم معتم يعترض مصدر الإضاءة، تنشأ منطقة معتمة خلفه أو جانبه، هي ما نسميه بالظل. ويختلف شكل الظل وكثافته وحدوده تبعًا لعدة عوامل، مثل: نوع مصدر الضوء، وزاوية سقوطه، ومسافته عن الجسم، وطبيعة السطح الذي يقع عليه الظل.

وهناك نوعان رئيسان من الظلال في التصوير:

- **الظل الذاتي (الساقط على الجسم نفسه)**: وهو الظل الذي يقع على الجسم نفسه، نتيجة اعتراض أحد أجزائه لمصدر الضوء، مما يحجب الإضاءة عن الأجزاء الأخرى. ويتخذ الظل الذاتي شكل الجسم ذاته، ويظهر عادة على الجانب البعيد عن مصدر

(1) عبد الفتاح، محمد، **فن التصوير الفوتوغرافي: التعريض والإضاءة**، ط1، ص 45

(1) نظمي، عزيز، **أثر الظلال على أعمال التصوير** ، الدورية العلمية لكلية الفنون الجميلة – جامعة الإسكندرية.

الضوء "الظل الذاتي هو غياب الضوء عن الجسم نفسه..."[1].

- **الظل الخارجي / الظل الساقط (على الأسطح المحيطة):** وهو الظل الذي يقع خارج حدود الجسم، على الأسطح المحيطة به، نتيجة حجب الضوء عنها. ويعتمد حجم الظل الخارجي واتجاهه على موقع الجسم وحجمه بالنسبة لمصدر الضوء، وعلى طبيعة السطح الذي ينعكس عليه، "هو الرقعة التي يحجب الجسم فيها الضوء عن الأجسام المحيطة به..." [2].

ويمكن تصنيف الظلال إلى عدة أنواع بناءً على شكلها وتأثيرها في الصورة، ومنها:

- **الظلال الحادة:** "الشمس هي مصدر ضوء مباشر يخلق ظلالاً مرئية وينتج حواف واضحة" [3].وهي الظلال الصُّلبة التي تظهر عند وجود فارق حاد بين الإضاءة الساطعة والظل الكامل، مما ينتج ظلالا محددة وواضحة المعالم
- **الظلال الناعمة:** "والسماء الملبدة بالغيوم مصدر كثير من الظلال ذات الحواف الناعمة الباهتة"[4] وهي الظلال التي تحدث عندما تكون الإضاءة أكثر توزيعًا وانتشارًا، فتكون الانتقالات بين الضوء والظل أكثر تدرجا ونعومة.
- **الظلال الخافتة:** يمكن أن تكون الظلال ناتجة عن مصادر ضوء طبيعية كالشمس، أو اصطناعية كالفوانيس والشموع. ويتيح استخدام مصادر الضوء المختلفة هذه للمصور التنويع في أشكال الظلال وتأثيراتها في الصورة.

دور الظل في إثراء التصوير الفوتوغرافي:

لا يقتصر دور الظل في التصوير على كونه نتيجة حتمية للإضاءة فحسب، بل يتعداه إلى كونه أداة تعبيرية وجمالية فعالة، يوظفها الفنانون لتحقيق العديد من الأغراض، ومنها:

- خلق الإيقاع البصري: يضفي تناوب المساحات الداكنة والفاتحة في الصورة نوعًا من الإيقاع البصري المتناغم، الذي يثير اهتمام العين ويحافظ على حيوية التكوين
- إضفاء الغموض والإثارة: تخلق الظلال القاتمة جوًا من الغموض والترقب، وتحفز خيال المشاهد لاستكمال التفاصيل المحجوبة، مما يضيف عنصر الإثارة والتشويق للعمل الفني
- تأكيد الرسالة الدرامية: يعد الظل عنصرًا دراميًا مهمًا، يساعد على تعميق الإحساس بالصراع أو التوتر أو القلق، ويدعم الرسالة العاطفية التي يود الفنان إيصالها للمتلقي
- التعبير عن الرمزية: يمكن للظل أن يكتسب دلالات رمزية تتجاوز وظيفته الشكلية، كأن يرمز للخوف أو الشر أو الموت أو الجهل، في مقابل النور الذي يرمز للأمل والخير والحياة والمعرفة

عوامل مشتركة بين التصوير الفني والتصوير الفوتوغرافي

---

(1) شلبي، رحاب مسعود، **مدى تأثير الظل والنور على الجداريات المعاصرة**، مجلة التراث والتصميم – كلية الفنون الجميلة، جامعة الإسكندرية، ص 190

(2) المرجع السابق ، ص190

(3) بن سعيد، سميرة نوري، **قيمة الضوء والظل للعمل الفني بأسلوب التهشيري**، مجلة الإعلام والفنون، مجلة الإعلام والفنون، 1(4). كلية الفنون والإعلام، جامعة طرابلس.

(4) المرجع السابق

رغم اختلاف الأدوات والخامات المستخدمة في التصوير الفني عنها في الفوتوغرافي، إلا أن ثمة روابط وعناصر مشتركة تجمع بين هذين النوعين من الفنون، ومن أبرزها:

- **الاعتماد على الصورة:** كلاهما يهدف إلى نقل فكرة أو شعور أو مشهد بواسطة الصورة المرئية، سواء كانت منسوجة من الكلمات أم ملتقطة بالعدسة.
- **التكوين والتأطير:** يعتمد الأديب والمصور على اختيار زاوية معينة وحدود محددة لما يريد تصويره، واستبعاد ما لا يخدم رسالته أو رؤيته، وهو ما يُطلق عليه في الفوتوغرافيات مصطلح "التأطير"، بينما نجد مقابله في الأدب عند الحديث عن وجهة النظر السردية والمنظور الذي يقدم من خلاله الراوي أحداث القصة وشخصياتها "القصة القصيرة تمثل وحدة سردية مكتملة تُبنى على تباين الأحداث وزاوية النظر..." [(1)].
- **استخدام (الضوء والظل) يقابله (اللفظ والمعنى):** يمثل الضوء والظل ثنائية أساسية في بناء الصورة الفوتوغرافية، ويقابلها في الصورة الأدبية في التصوير الفني تحديدًا اللفظ والمعنى، فكل من الأديب والمصور الفوتوغرافي يستغل التباينات الضوئية لجذب الانتباه إلى عناصر معينة، أو لخلق تأثيرات درامية ونفسية تُظهر أفكار العمل الفني وأجواءه، كما يفعل الأديب باستخدام ألفاظ متباينة ورموز متفاوتة على طول الصورة الفنية التي يرسمها بالكلمات، فتمثل الضوء وما يخرج منها من معانٍ يمثل الظلال المختلفة التي تتغاير وتتباين باختلاف الحالة النفسية للأديب.
- **الرمزية والتأويل:** لا تكتفي الصورة في كلا النوعين بالدلالة المباشرة الظاهرة، بل تحمل غالبًا معنى آخر خفيًا يُستشفّ من وراء التفاصيل والظلال، ويختلف باختلاف ذائقة المتلقي وخلفيته الثقافية والمعرفية. "وبالقدر الذي انحصر الموضوع في نواة مركزية تتمثل في معاينة التأليف بين عنصري الدلالة (الدال + المدلول) ... فإن هذه القراءة لم تحصر الموضوع في حقائق الأشياء أو الدلالات والمعاني، بل هي القراءة التي تنطلق من تأليفهما وفعالية القارئ"[(2)].

وهذه العوامل في مجملها تتوفر في الصورة الفنية الشعرية وفي الصورة الفوتوغرافية والمرسومة على حد سواء، واهتمام المصور أو الرسام أو الشاعر بالظلال له أهميته لما يضيف للعمل الأدبي من أبعاد فنية ونفسية لا يمكن للعمل أن يوصل رسالته للمتلقي بدونها.

وهكذا نرى أن العلاقة بين التصوير الفني والتصوير الفوتوغرافي أعمق من مجرد تشابه في الشكل أو الأدوات، فهي تمتد إلى جوهر الرؤية الجمالية والفكرية التي ينطلق منها كلٌّ من الأديب والمصوّر. فالفن في جوهره بحث عن المعنى خلف الصورة، سواء كانت مرسومة بالحبر أو مرسومة بالضوء. وكما ينتقي المصوّر زاويته بعناية ليحكي بها لحظة، ينتقي الشاعر أو القاص كلماته ليبني منها عالَمًا دلاليًّا متكاملًا. ومن هنا فإن الصورة، في كلا المجالين، لا تكتمل إلا بما تحمله من ظلال وانعكاسات، من تلميحات وإيحاءات، تجعل المتلقي شريكًا في صياغة المعنى. وبذلك تصبح كل صورة أدبية أو فوتوغرافية مرآةً لما في الداخل، بقدر ما تعكس ما في الخارج، ووسيلةً للتعبير عن الوجدان الإنساني في أنقى صوره.

---

(1) المرزوقي، سمير& شاكر، جميل، **مدخل إلى نظرية القصة: تحليلاً وتطبيقًا**، د.ط، ص74

(1) جمعي، الأخضر، **اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب**، د.ط، ص128.

المبحث الثاني: مفهوم الظل كرافد للتصوير الفني

إن كلمة "الظل" إذ أُطلقت تَستحضر في الأذهان صورًا لما هو كامن ومستتر، ولأرواح تختبئ خلف ستار المرئي والمعلوم. فالظل، بما يحمله من إيحاءات وغموض وخفاء، يأخذ النفس عبر دروب الفكر الإنساني، بدءًا من الفلسفة والتصوف، مرورًا بعلم النفس، وصولًا إلى الأدب والفن، حيث يتجلى كمفهوم محوري يكشف أعماق النفس البشرية ويثري الخطاب الإبداعي.

وللوقوف على مفهوم الظل لابد من مناقشته في ضوء المحاولات السابقة لفهمه في شتى العلوم الإنسانية وقد استشرفت الدكتورة فاطمة الوهيبي، في كتابها "الظل: أساطيره وامتداداته المعرفية والإبداعية"، شبكة العلاقات المعقدة التي تربط مفهوم الظل بمختلف مجالات المعرفة والإبداع الإنساني. فمن خلال تتبع تجليات الظل في الأساطير والأديان ومناهج الفكر والتعبير الفني، سعت الوهيبي لاستجلاء مفاهيم للظل، مبرزةً أهميته كمفتاح لفهم الوجود الإنساني بتناقضاته وتجلياته المتنوعة[1].

تضمن كتاب الوهيبي عشرة فصول تناولت موضوع الظل في عدة مجالات، بدءًا من الميثولوجيا وصولًا إلى الأدب والشعر والفلسفة. وقد بدأ الكتاب بالظل في الميثولوجيا، حيث استعرض الظل في المدونة التراثية والدينية، مثل القرآن الكريم والحديث الشريف، وفي عدد من نصوص وكتب الفرق الدينية.

كما تناولت الظل وبدء الخليقة وفي كتاب "الهفت والأظلة" و"أم الكتاب" أو "اسطورة الخلق والظلال عند الإسماعيلية" ورؤيا، وتعمقت الوهيبي في دراسة الظل عند المدرسة الصوفية، كما استعرضت الظل والنور لدى بن منظور والظل عند التوحيدي وبن عربي ومصطلحاته عند علي الجرجاني، وغيرهم، وناقشت في الفصل الثالث، الظل عند الفلاسفة مثل أفلاطون، ونيتشه، وهايجر،وغيرهم، وفي الفصل الرابع، إلى "الظل وفلسفة الهُوِيَّة الثقافية" بين كتابين لليابانيّ جونشييرو تانيزاكي والفرنسي بول فيريليو. كما درست الظل في علم النفس من خلال نموذج "يونغ" حيث تم التطرق إلى الظل والقناع والأنيما والأنيموس.

وفي فصلها السادس درست رؤية الظل واللغة والكتابة في التراث العربي ورمزية الحروف والظل في "أم الكتاب"، كما درست في الفصل السابع والثامن والتاسع الظل في الأدب الروائي وفكرة الظل المفقود والقرين والشبح في الرواية، حيث تناولت فكرة الظل المفقود كرواية "الطين" لعبده خال و"حارسة الظلال" لواسيني الأعرج. كما ركزت على دراسة الظل في الشعر من خلال نماذج شعرية أجنبية وعربية، مثل "الكوميديا الإلهية" لدانتي ونصوصًا شعرية لمحمود درويش.

وختمت المؤلفة كتابها بالحديث عن "الظل في الموروثات الشعبية"، حيث استعرضت دور الظل في الموروثات والتقاليد الشعبية، وبهذا، يعد كتاب " الظل: أساطيره وامتداداته المعرفية والإبداعية " إضافة قيمة للمكتبة العربية بأنطولوجيا شاملة تتناول موضوع الظل من مختلف الزوايا والجوانب، مما يجعله مرجعًا مهمًا لكل باحث أو مهتم بدراسة هذا الموضع.

ومن باب التعريج على تلك المفاهيم سريعًا، لابد من التأصيل لهذا المفهوم من عدة اتجاهات:

أولا: الظل من منظور لُغوي ديني

ورد في لسان العرب "ظل النهار: لونه إذا غلبته الشمس. والظل نقيض الضح وبعضهم يجعل الظل الفيء، قال رؤية: كل موقع يكون فيه الشمس فتزول عنه فهو فيء وظل. وقيل

(1) الوهيبي، فاطمة عبد الله، **الظل: أساطيره وامتداداته المعرفية والإبداعية**، ط1، الرياض 2008م.

الفيء بالعشي والظل بالغداة فالظل ما كان قبل الشمس والفيء ما فاء بعد. وجمع الظل: أظلال وظلال وظُلول"[1]. وورد في كتاب الله تعالى (ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ) [2] وذهب المفسرون في هذه الآية مذاهبًا فمنهم من يرى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها، ويقول الشوكاني في تفسير الظل هنا: "لما فرغ سبحانه من ذلك جهالة الجاهلين وضلالتهم أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الانعام فأولها الاستدلال بأحوال الظل فقال: (ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ) هذه الرؤية إما بصرية والمراد بها ألم تبصر إلي صنع ربك، أو لم تبصر إلي الظل كيف مده ربك. وإما قلبية بمعني العلم، فإن الظل متغير، وكل متغير حادث، ولكل حادث موجد"[3]

ثانيًا: الظل في المنظور الفلسفي والصوفي

لقد شغل مفهوم الظل فكر المتأملين والحكماء منذ فجر التاريخ، فارتبط بمسائل الوجود والمعرفة والحقيقة. ولعل أشهر استعارة فلسفية في هذا السياق هي أسطورة الكهف لأفلاطون، التي تصور الإنسان أسيرًا لعالم الظلال "فالسجن يقابل العالم المنظور، ووهج النار الذي كان ينير السجن يناظر ضوء الشمس، أما رحلة الصعود لرؤية الأشياء في العالم الأعلى فتمثل صعود النفس إلى العالم المعقول.." [4]

أما في التصوف الإسلامي، فيكتسب الظل أبعادًا وجودية ورمزية عميقة، ويجد القارئ لنتاج المتصوفة، خاصة ابن عربي، أن للظل مكانة محورية في التفكير الصوفي حيث التطلع إلى الاندراج في النور الأعظم، والانثناء والطي فيه، بعد الحياة ومد الظل الذي هو، باصطلاح المتصوفة، بسط الوجود الإضافي على الممكنات. ولذلك كثرت في الظل مصطلحاتهم[5] ، كما يتضح من تعريف الجرجاني له في كتاب التعريفات بأنه "الوجود الإضافي الظاهر بتعيّنات الأعيان الممكنة وأحكامها"، وهي "معدومات ظهرت باسم النور"، وكأن العالم بتجلياته ما هو إلا انعكاس ظليل للحقيقة المطلقة.

ثالثًا: الظل في المنظور النفسي

وفي ميدان علم النفس، يحتلُّ مفهوم الظل مكانة محورية في نظرية كارل يونغ، حيث يُنظر إليه بوصفه أحد مكونات الشخصية الرئيسة. فالظل، لدى يونغ، هو الجانب المكبوت والمظلم من الأنا، الذي يأوي الغرائز البدائية والميول المحظورة والصفات غير المستساغة. لكن يونغ، يدرك أن الظل ليس مستودعًا للشرور فحسب، بل هو أيضًا ينبوع للطاقة الإبداعية والإمكانات الخلاقة، وأن مواجهته ودمجه في دائرة الوعي هو سبيل التكامل النفسي والتحقق الذاتي الأصيل.

رابعًا: الظل كمفتاح لتحليل الصورة الفنية في الأدب

حين ننتقل إلى فضاء الأدب والنقد، يغدو الظل أداةً إجرائية ثرية لتحليل الصورة الفنية والغوص في أعماق النص الإبداعي. فكثيرًا ما تتقمص الظلال هيئة شخصيات ورموز تُظهر

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، ص415

(2) سورة الفرقان، الآيتان 45،46.

(3) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، **فتح القدير** ، د.ط، ج4،ص79

(4) أفلاطون. (2023). الجمهورية (هنداوي، المحرّر، جلد 7، ص. 398). الرياض: مؤسسة هنداوي.

(5) الوهيبي، فاطمة عبد الله، **الظل: أساطيره وامتداداته المعرفية والإبداعية**، ط1، ص105.

التعقيدات النفسية والصراعات الداخلية، فيصبح تقصي الظلال وتأويلها سبيلًا لفك شفرات النص واستنطاق مكنوناته العميقة، ويغني مفهوم الظل مقاربتنا للصور والاستعارات الأدبية، حيث يكسوها بظلاله الموحية بالغموض والعمق والرحابة. وهكذا يتحول الظل من عنصر بصري محض إلى أداة تعبيرية وجمالية، تكثف الدلالة وتعمق الرؤية الإنسانية للنص، كما يتيح لنا مفهوم الظل استجلاء التقنيات والأساليب الفنية في توظيف الظل كبنية تضادية بين النور والظلام، أو كآلية للإيحاء والتلميح وبناء الأجواء النفسية (1)

خامسًا: الظل في منظور التصوير الفني

بين الأدوات التي استخدمها صلاح الخالدي في كتابه "نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، تبرز "الظلال" كعنصر فني له قدرة فريدة على استحضار المعاني والدلالات بطرق تتجاوز حدود اللغة المباشرة. فالظلال في التصوير الفني لا تقتصر على كونها عناصر ثانوية، بل هي لغة قائمة بذاتها، قادرة على خلق صور شاخصة وإثارة الخيال بطرق لا تضاهيها الكلمات.

الظلال كأداة تعبيرية (2) :

تكمن قوة الظلال في قدرتها على الإيحاء والتلميح بدلًا من التصريح المباشر. فهي تفتح الباب أمام تأويلات متعددة وتترك للمتلقي مساحة لاستكشاف المعاني الخفية وراء الصورة. وكما يقول سيد قطب، " تقوم الظلال السريعة الخفيفة، مقام الصور الكاملة العنيفة، فتغني غناءها في التصوير، أو تقوم مقامها في التعبير، وتدع للخيال مجاله في رسم الظلال، وتصوير السمات، وتأليف الأشكال ..." (3) ما يُغني التعبير ويُثري التجرِبة الجمالية.

الإبداع في توظيف الظل:

يرى الدكتور صلاح الخالدي أن الظلال ليست مجرد وسيلة لاستقصاء معنى دلالي من اللفظ فحسب " وإنما تقوم الظلال مقام التعبيرات في التصوير، وتغني غناءها؛ فترتسم صورة فنية شاخصة، لها كل خصائص التصوير الفني، لا بالألفاظ وإنما بالظلال الموحية! وهكذا يكون الإعجاز؛ إذ يتم التصوير بالظل لا باللفظ والتصوير بالظل من أبلغ ألوان التصوير!" (4) فهي كما لها كل خصائص التصوير الفني دون الحاجة إلى الاعتماد على الألفاظ. هذا يُبرز دور الشاعر أو الأديب في اكتشاف طرق مبتكرة لاستخدام الظل، بحيث يتحول من مجرد عنصر ثانوي إلى لغة فنية مستقلة، لها قواعدها وجمالياتها الخاصة.

الظلال وإثراء التجرِبة الجمالية:

إن قدرة الظلال على إثارة الخيال وفتح الباب أمام تأويلات متعددة، يجعل منها عنصرًا محوريًا في إثراء التجرِبة الجمالية للمتلقي. فعندما يواجه القارئ صورة فنية تعتمد على الظلال، فإنه يجد نفسه منخرطًا في عملية استكشاف وتأمل، يسعى من خلالها لفك شفرات الصورة واستنطاق مدلولاتها الخفية. هذه المشاركة الفاعلة من قبل المتلقي تُعمق التفاعل بينه وبين العمل الفني، وتجعل التجرِبة الجمالية أكثر ثراءً وتأثيرًا.

---

(1) الوهيبي، فاطمة عبد الله، **الظل: أساطيره وامتداداته المعرفية والإبداعية**، ط1، ص105.

(2) الخالدي، صلاح **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، ط1، ص271.

(1) قطب، سيد، **مشاهد القيامة في القرآن**، ط5، ص47.

(2) الخالدي، صلاح، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، ط1، ص271.

فالظلال هنا لا تقدم المعنى جاهزًا، بل تدعو المتلقي لبناء المعنى بنفسه، عبر تفاعله مع الإيحاءات والتلميحات التي تنطوي عليها الصورة.

الظلال والبعد الروحي:

إن توظيف الظلال في التصوير الفني لا يقتصر على البعد الجمالي فحسب، بل يمتد ليشمل أبعادًا روحية وفلسفية عميقة. فالظلال، بطبيعتها تستطيع أن تلامس الجوانب الخفية في التجربة الإنسانية، وتفتح نافذة على عوالم غير مرئية، وتدعو المتلقي للتأمل في الأسئلة الكبرى عن الوجود والحقيقة والجمال. هذا البعد الروحي يُضفي على التصوير بالظلال هالة خاصة، تتجاوز حدود التعبير المادي لتصل إلى مستويات أعمق من الإدراك والمعرفة.

ومما سبق يتضح لنا أن الظلال في التصوير الفني لغة تعبيرية قائمة بذاتها، لها قدرة على استحضار المعاني والدلالات بطرق تتجاوز حدود الكلمات، وعبر توظيفها بشكل خلاق ومبدع، تصبح الظلال أداة فعالة لإثراء التجربة الجمالية وفتح آفاق جديدة للتأمل والتحليل.

المبحث الثالث: الفرق بين الظل والخيال والتخييل

إن الحديث عن الصورة الفنية في الأدب لا يكتمل دون استجلاء مفاهيم أساسية تتشابك وتتقاطع في تشكيلها وتأويلها، وفي مقدمتها مفهوم الظل والخيال أو الظل والتخييل. فالظل بأنماطه وتجلياته المتعددة، كما رأينا في المقال السابق، يمثل عنصرًا بنائيًا وتعبيريًا محوريًا في صياغة الصورة الفنية وإنتاج دلالاتها. أما الخيال فهو الملكة الإبداعية التي تمكن الأديب من إعادة تركيب عناصر الواقع في أشكال جديدة ومبتكرة، وصهرها في بوتقة التجربة الشعورية الخاصة.

والمقارنة بين مفاهيم الظل والخيال والتخييل في مجال الأدب والنقد تتطلب نظرة دقيقة وتحليلًا عميقًا، يتجاوز التعريفات العامة إلى استحضار خصوصية كل مفهوم وتمايزه عن الآخر. وإذا كان الظل يبدو الأكثر تحديدًا وارتباطًا بجسد النص من بينها، فإن ذلك يستدعي تأملًا في أنماطه المتعددة وتجلياته المختلفة، تلك التي تكشف عن ثرائه الدلالي وعمقه الجمالي.

وعلى هذا ذهب الدكتور أيمن تعيلب في كتابه "شعرية الظل ومقاومة النسق الثقافي" إلى "أن (مجازات الظل) هي الموازي الجمالي العميق لثقافة نبض الشارع ضد الشرعيات وثقافة خبرة الحس المباشر بالوجود واللغة والجمال" [1] فالظل الأدبي ليس كتلة معتمة صماء، بل هو كيان حي نابض، يتخذ هيئات شتى ويفضي إلى آفاق رحبة من التأويل والمعنى.

أولًا: مفهوم الظل في التصوير الفني:

يُشكل الظل عنصرًا محوريًا في التصوير الفني، فهو ليس مجرد نتيجة حتمية لتفاعل الضوء مع الأجسام، بل يتجاوز ذلك ليصبح لغة تعبيرية قائمة بذاتها. وكما يقول سيد قطب: "وهكذا تقوم الظلال السريعة الخفيفة، مقام الصور الكاملة العنيفة، فتغني غناءها في التصوير، أو تقوم مقامها في التعبير، وتدع للخيال مجاله في رسم الظلال، وتصوير السمات، وتأليف الأشكال..." [2]. فالظلال، بتدرجاتها اللونية وأشكالها وحدودها، تستطيع أن توحي بدلالات، تتجاوز المباشرة والسطحية، وتفتح الباب أمام تأويلات متنوعة.

ثانيًا: مفهوم الخيال وأنواعه:

يُعرَّف الخيال بأنه "القدرة التي يستطيع العقل بها تشكيل صور الأشياء أو الأشخاص، وهو القوة التي تحفظ ما يدركه الحس،

([1]) تعيلب، أيمن، **شعرية الظل ومقاومة النسق الثقافي مقاربات معرفية وتخييلية**، ط1، ص 36.

(2) قطب،سيد، **مشاهد القيامة في القرآن**، ط5، ص47.

وبه يستحضر الإنسان صورًا من الماضي ويستعيدها في أي وقت أو مناسبة تستدعيها"[1]. بينما يرى العشماوي أن الخيال "القوة القادرة على الخلق والتوحد، فهذه الأجزاء المتفرقة في الطبيعة لا ينقلها الشاعر كما هي، ولا يهدف بفنه إلى الربط فيما بينها تحت مقولة عقلية أو فكرة منطقية واحدة، ولا يقصد إلى تحقيق فكرته واقعيًا بتصويرها، وإنما يقصد إلى جعل عمله الفني أو لوحته الفنية التي تستمد أجزاؤها من الطبيعة موضوعية بتصويرها، إذ يعيش الشاعر الموضوع بكل وجدانه، ويخلع عليه عاطفته ويستغرق في تأمله، ثم ينتهى إلى حقيقة جوهرية تنكشف له فيه، ثم ينتج عن هذا كله رسم صورة متخيلة في مجموعها تتحقق الوحدة الحيوية الكامنة وراء هذه الجزئيات، ولا يتأتى ذلك كله إلا من التحام الذات بالموضوع" [2] فالخيال عنده هو ملكة عقلية تسمح للإنسان باستحضار صور وأفكار غير موجودة في الواقع المادي، سواء كانت مستقاة من الذاكرة أو مبتكرة ومتخيلة.

وللخيال أنواع متعددة، منها: الخيال الناجم عن الذاكرة، وأحلام اليقظة، والخيال الطيف، والخيال الناجم عن الأحلام عند النوم، والخيال الناجم عن الحرمان أو الهلوسة، والتخيل التأليفي والإبداعي. وكل هذه الأنواع تؤكد أن الخيال نشاط ذهني يقوم على إعادة تشكيل الصور الحسية للأشياء الغائبة عن الإدراك المباشر، وتأليف علاقات جديدة بينها بما يتجاوز المحاكاة السطحية للواقع.

وقد قسم الدكتور سعد الغانمي الخيال إلى ثلاث مستويات " هي على التَّوالي؛ الخيال الأسطوريُّ الذي يشغِّل آليّاتِهِ الاستعاريَّة على محور الكلمة، ثمَّ الخيال اليوتوبيّ الذي يشغِّل آليّاتِهِ على محور التَّصوُّر، وأخيرًا الخيال العلميُّ الذي تشتغل آليّات الاستعارة البلاغيَّة لديه على مستوى الشَّيء أو المرجع الخارجيّ." [3]

فالخيال باتساع رقعته ورحابة فضائه يتسع للظل المنبثق من الصورة ولغير الظل من مخرجات نفسية وعقلية واتساع الأفق لمحاور أخرى غير المحور الذي يدور عنه الظل، وإن كان الخيال والظل قد اجتمعا سويا في مصطلح لفن عريق وهو "خيال الظل" الذي هو تمثيل بالشخوص خلف ستارة بيضاء وأمام مصدر للضوء فتتحرك تلك الشخوص محدثة حركة درامية تجمع بين هذا الخيال والظل.

"ومن هنا يجب أن نعي المفهوم الفلسفي والجمالي العميق لمصطلح ((خيال الظل)) ، أو ((خيال العراء)) في مقابلة ((خيال النسق الرسمي)) أو ((خيال الستغراق الثقافي)). فليس الظل هو الهامشي الضعيف ولا اليومي المبتذل ولا الحسي المهمل كما فهم معظم المبدعين والنقاد بل هو قوة المباينة" [4] فالظل متى أضيف لمصطلح أو أضيف إليه مصطلح آخر منحه العديد من الدلالات التي قد تخرجه عن سياقه بخلاف مفهوم الخيال.

ثالثًا: التخييل في الفكر النقدي:

يُعدّ التخييل من المفاهيم المحوريّة في الدراسات النقديّة والبلاغيّة والفلسفيّة، وقد شغل هذا المفهوم اهتمام الباحثين والمفكرين على مرّ العصور، نظرًا لارتباطه الوثيق بالإبداع الفنّي والأدبيّ. وعلى الرغم من تعدّد التعريفات الاصطلاحيّة

---

(3) وهبة، مجدي & المهندس، كامل، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، ط1، ص 163.

(1) العشماوى، محمد زكي، **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**، د.ط، ص 79، 80.

(2) الغانمي،سعيد، **فاعلية الخيال الأدبي: محاولة في بلاغية المعرفة من الأسطورة حتى العلم الوصفي**، ط1، ص283.

(3) تعيلب، أيمن ، **شعرية الظل ومقاومة النسق الثقافي مقاربات معرفية وتخييلية**، ط1، ص 52.

للتخييل، فإنَّها تتفق في كونه عمليّة ذهنيّة تقوم على إنشاء صور جديدة، انطلاقًا من معطيات الواقع والتجرِبة الإنسانيّة.

وقد انتقل لفظ التخييل من حقله المعجميّ إلى الحقل الاصطلاحيّ، مشكّلًا اختلافًا في الحمولة المعرفيّة، كما يشير إلى ذلك معجم اصطلاحات الفنون والعلوم، الذي يفرّق بين الخيال والتخييل، فالأوّل هو Imagination بينما المصطلح الثاني هو Polysemie أو Suggestion. ويعني التخييل "يحدث الإيهام عندما يُستعمل لفظ له معنيان، كلاهما تام، أحدهما أقرب إلى الفهم من الآخر، فيسبق إليه الوهم، ثم يُكشف أن المقصود هو المعنى الآخر. وأما التخييل فهو أن يُؤتى بلفظ مشترك بين عدة معانٍ، ويدلّ السياق على أحدها، مع مراعاة النظير، فيسبق الوهم إلى غير المقصود، فينشأ تأثير بلاغي خاص؛ وهو قريب من الخيال، لكنه يختلف عنه بأن الخيال يشتمل على صورة مجازية أو لطيفة أو ضرب مثل."[1]

وتكمن أهميّة التخييل في كونه يعتمد على الإدراك والقوى العقليّة، بينما الخيال كما يرى محمد مفتاح "قوّة وملكة من بين القوى والملكات التي يمتلكها كلّ إنسان عاديّ مثل السمع والبصر، والتفكّر والعقل".[2] لذلك فإنّ قوّة الذهن على التخييل قد تتفاوت مقارنة مع قوى الحواس، وهو ما يدفعنا إلى اعتبار قوّة المخيّلة في الأعمال الفنيّة لا سيّما الأدبيّة منها، من أهمّ مقوّمات الإبداع.

وتتجلّى أهميّة التخييل في الأدب بقدرته على خلق عوالم جديدة، وتشكيل رؤى مغايرة للواقع، انطلاقًا من تفاعل الذات المبدعة مع محيطها وتجارِبها الخاصّة. فالمبدع، عبر مخيّلته، يعيد صياغة الواقع وفق رؤيته الخاصّة، ويقدّم للمتلقّي نصوصًا إبداعيّة تتجاوز حدود المألوف والمعتاد، وتفتح آفاقًا جديدة للتأويل والتفسير.

كما يرتبط التخييل بالوظيفة الجماليّة للأدب، فهو يسهم في خلق الصور الفنيّة المؤثّرة، ويثري النصّ بدلالات ورموز متعدّدة، تستفزّ ذهن المتلقّي وتدفعه إلى المشاركة الفاعلة في إنتاج المعنى. وبذلك يتحوّل النصّ الأدبيّ، عبر التخييل، من مجرّد بنية لُغوية إلى فضاء دلاليّ منفتح على التأويل، يتيح للقارئ فرصة اكتشاف جماليّات النصّ وأبعاده الخفيّة.

رابعًا: التشابك بين المصطلحات الثلاثة:

ومما سبق يمكن استنتاج حقيقة الفرق بين المصطلحات الثلاثة فالظل يبدو الأكثر خصوصية في حقل الأدب، إذ يتعلق بشعرية النص المفردة وطرائق اشتغاله الداخلية معتمدًا على اللفظ وما يشكله من صور جزئية والنص وما يمثله من صور كلية. فهو يكمن فيما لم يقله النص صراحة، وفي فراغاته البيضاء التي تستهوي المتلقي للمشاركة في ملئها وتأويلها. وهو يحتاج إلى النظرة النقدية الثاقبة كي يستكشف ويؤول، على خلاف الخيال الذي يبدو جليًا في معظم الأحوال. ثمَّ أن الظل قد يتولد عفويًا وطبيعيًا أثناء الكتابة، أما التخييل فهو فعل أكثر وعيًا وقصدية. لكن الظل يبقى متشابكًا مع الخيال والتخييل في صياغة العمل الإبداعي، فهو يمنح كل منهما حسًا ملموسًا كما يحفزهما على الدوام، وتتقاطع الثلاثة لتنتج لنا في كل مرة نصا فريدا.

- الظل هو الأشد التصاقا بالنص وارتهانا لمعطياته وطرائق اشتغاله، فهو ينبثق من ثناياه ويستكن في طبقاته العميقة، ولا يمكن تأويله بمعزل عنه.
- الخيال هو الفضاء الرحب الذي يستمد منه الأدب مادته وصوره، فهو يحفز الإبداع ويتيح له آفاقا رحبة من التعبير والتصوير، لكنه يظل محكوما بمنطق التجرِبة الإنسانية.

---

(1) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، **علم البديع**، ط1، ص.382.

(2) مفتاح، محمد **مشكاة المفاهيم–النَّقد العربي والمثاقفة**، د.ط، ص.10.

- التخييل هو الطاقة الخلاقة التي تمكن الأديب من تجاوز المألوف وصياغة عوالم بديلة، وهو الأكثر وعيا وإرادية في توظيف مكونات الواقع والخيال لإنتاج صور جديدة.
- يمثل الظل عمق النص وإيحاءاته الخفية، بينما يشكل الخيال الخزان الذي يغترف منه الأديب، في حين يجسد التخييل الفعل الإبداعي ذاته في لحظة اشتغاله.
- لا غنى لأي نص أدبي عن هذه المكونات الثلاثة مجتمعة، فبتضافرها يكتسب قيمته الجمالية وقدرته على الإيحاء والتأثير والخلق، لكن لكل منها دوره الخاص.

إن المقارنة بين مفاهيم الظل والخيال والتخييل في مجال الأدب والنقد تتطلب نظرة دقيقة وتحليلًا عميقًا، يتجاوز التعريفات العامة إلى تمييز خصوصية كل مفهوم وتفاضله على الآخر. وإذا كان الظل يبدو الأكثر تحديدًا وارتباطًا بجسد النص من بينها، والأكثر تمثيلا لمفهوم التصوير الفني إذ يخلق من الصورة الواحدة ظلالا متعددة كل ظل منها قد يرسم صورة أخرى لها أفكارها ومدلولاتها، ولذلك فالظل يستدعي تأملًا في أنماطه المتعددة وتجلياته الَّتي تكشف عن ثرائه الدلالي وعمقه الجمالي.

وعلى هذا يمكن ربط الظلال بالصورة الفنية التي تعبّر عنها وتمثلها، حيث يمكن للظل أن يحمل معاني متعددة ويعكس أفكارًا ومدلولات مختلفة.

المبحث الرابع: أنماط الظل وتوظيفها في تحليل الصورة الفنية

أن الناظر إلى توظيف الظلال في الفنون البصرية سواء كانت في مجال الرسم، التصوير، الإخراج السينمائي، أو التصميم المعماري يجد أن الظلال تمثل مدلولات وتأثيرات على المخرج النهائي من العمل الفني، ومن باب توارد الأفكار وتراسل العلوم والفنون، فلقد كونت الظلال بمدلولاتها التي سبق مناقشتها مادة خصبة لتحليل الصور الفنية في الأعمال الأدبية ولاستخدامها بشكل دقيق في التحليل، لابد من الوقوف على أنماطها وتحليل تلك الأنماط بذكر أوجه الاتفاق والاختلاف فيما بينها.

أولًا: أنماط الظلال من حيث الشكل

تنقسم الظلال من حيث الشكل إلى ظلال حادة وظلال ناعمة وظلال باهتة حسب قوة التأثير النفسي في النص والحالة الشعورية للشاعر والروافد الفكرية التي يستقي منها أفكاره.

الظلال الحادة:

هي الظلال ذات الحواف الواضحة والتباين القوي مع المناطق المضاءة، وتنشأ عادة عندما يكون مصدر الضوء صغيرًا أو بعيدًا نسبيًا، مما يؤدي إلى انحسار منطقة التدرج اللوني بين الضوء والظل [1]. وغالبًا ما توظف الظلال الحادة في الصورة الفنية لخلق تأثير درامي أو رمزي، كأن تعبر عن حدة الصراع أو وضوح الرؤية أو صرامة الشخصية.

ويمكن ملاحظة تلك الظلال في تحليل الصورة الفنية في الشعر إذا كانت الصورة جزئية مباشرة تصف المكان أو الزمان أو تستشهد بمشهد وحقيقة تاريخية، ونرى من ذلك مثالا في شعر سمحان في حديثه عن مصر إذ يقول:[2]

(1) عبد الحميد، شاكر، **التفضيل الجمالي: دراسة في سيكولوجية التذوق الفني**، ط1، ص182.

(2) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط، ص154.

عَـــاشَ الهِـــلالُ مَـــعَ الصَّـــلِيبِ بأرْضِـــهَا في وَحْـــدةٍ صّـــاغَ الإخَـــاءُ لُحَـــامَهَا

وَعَلـــــتْ بِقـــــاهِرَةِ الْمُعِـــــزِّ مَـــــآذِنٌ وَالأزْهَـــرُ الْوَضَّـــاءُ صَـــارَ إمَـــامَهَا

فالصورة في البيت الأول تلقي بظلال حادة واضحة قاطعة وهذه الظلال تكشف تفاصيل الصورة التي رسمها الإخاء بين عنصري الشعب المصري بين الهلال المقصود به المسلمين والصليب المقصود به النصارى، وبين سيطرة وهيمنة الإسلام على النصرانية ببيته الثاني الذي أتى كذلك بظلال حادة تجسد صورة علو المآذن وتحول الأزهر إلى إمام يؤم مساجد مصر وكنائسها على حد سواء.

الظلال الناعمة:

وهي الظلال التي تتدرج تدريجيًا من المناطق المضاءة إلى المعتمة، دون وجود حدود فاصلة بينها، نتيجة لاتساع مساحة مصدر الضوء أو بعده من الجسم المضيء. وتميل الظلال الناعمة إلى إضفاء طابع أكثر واقعية وهدوء على الصورة الفنية، ثمَّ أنها لا تساعد على إظهار تفاصيل الأسطح والأجسام.

وفي تطبيق ذلك في تحليل الصورة الفنية أيضًا يمكننا الوقوف على نماذج لتلك الظلال التي تأتي ناعمة لا تنقل الصورة بدقة بقدر ما تشير وتلمح إليها بنعومة وانسيابية، ففي نفس القصيدة يقول سمحان : [1]

لـــــمْ تَذكـــــرْ الأيَّـــــامُ في أسْـــــفارهَا أنَّ الكِنـــــــانَةَ قَطَّعَـــــــتْ أرْحَـــــامَهَا

وَهِـــيَ الـــتِي مَـــا وَدَّعَـــتْ أخْـــوالـــهَا فِي النَّائِبَـــــاتِ وَلا قَلَـــــتْ أعْمَـــــامَهَا

هنا تأتي الصورة الفنية بدلالات واضحة أن مصر لم تقطع أرحامها أي لم تتخلى عن الدور العربية الأخرى التي هي بمنزلة الأرحام فوصفهم بالأعمام والأخوال، ولكن هذه الصورة ظلالها ناعمة فليس المعلوم بدقة من هم الأعمام ومن هم الأخوال فقد يكون في صورة الأخوال ظل ناعم يعود إلى أن هاجر أم إسماعيل عليه السلام كانت مصرية فالمصريون هم أخوال العرب لأن من بينهم كانت أم أبيهم إسماعيل والأعمام قد يقصد بهم الساميين الآخرين من أهل الشام الذين يشتركون في الأب سام ابن نوح فهم أبناء عمومتهم.

الظلال الخافتة:

وتسمى أيضًا الظلال الباهتة أو الضعيفة، وهي الظلال قليلة الكثافة والتباين، بحيث تكاد تندمج مع المناطق المضاءة المحيطة بها، وتنتج الظلال الباهتة عن طريق وجود إضاءة ثانوية أو منعكسة داخل المشهد، وتوظف هذه الظلال في الصورة الفنية للتعبير عن الأجواء الغامضة.

(1) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ، ص154.

وإذا حاولنا تقصي هذا النمط على الصور الفنية في شعر محمد سمحان نجد له ما يكاد أن يكون منطبقًا عليه تمامًا ويجسد حالة الظل الخافت الذي تلقي به الصورة الفنية:

يقول في قصيدته الموسومة بـ"أم القصائد" التي ألقاها في بغداد [1]

وإذا بأعـــــراب الجزيـــــرة قُلَّـــــبٌ وإذا ابـــــن عمـــــك شـــــانئ وحقـــــود

مـــــن كـــــان يعلـــــم والقبائـــــل أظهـــــرت مـــــا أبطنـــــت أن الحمـــــيم لـــــدود

وهنا عدة صور جزئية فصورة الأعراب القلَّب، وصورة ابن العم الحقود، وصورة القبائل الماكرة التي أظهرت ما أبطنت، وصورة الحميم اللدود. كل تلك الصور مجتمعة تلقي بظل خافت على حرب الخليج التي استعانت فيها دول الخليج العربي بالدول الغربية وتحديدًا بالولايات المتحدة فيما عرف آنذاك بعاصفة الصحراء، وهذا الظل الخافت لا يبدو واضحًا وضوح الظلال الحادة ولا الناعمة، ولكنه يحتاج من القارئ أن يكون على دراية وعلم بالأحداث والوقائع التي يلمح لها الشاعر في قصائده.

والظل الخافت أيضًا يرسم بخفوته صورًا أخرى مشوهة مشوشة أنه لم يكن بالحسبان هذا الغدر الذي قامت به القبائل العربية في وجه بغداد، وكذلك يصور ابن العم بما يجب أن يكون عليه في التراث العربي أنه حميم ولكن في هذه الواقعة فقد ألقى عليه عدة ظلال فهو " شانئ، وحقود، ولدود" وكل منه يلقي بظل مختلف.

ثانيًا: أنماط الظلال من حيث التأثير

الظلال الممتدة:

في فن التصوير: هي الظلال التي تتجاوز حدود الجسم أو الشكل المسقط عليه الضوء، لتغطي مساحة أكبر من الفراغ المحيط به. وتتشكل الظلال الممتدة عندما يكون مصدر الضوء منخفضًا أو بعيدًا عن الجسم، وتكمن أهمية الظلال الممتدة في الصورة الفنية في قدرتها على ربط الأجسام ببعضها وبالمحيط، وخلق إيقاع بصري وحركة داخل المشهد، فضلًا عن إمكانية توظيفها دلاليًا للإيحاء بامتداد تأثير الشخصية أو الحدث.

عند تطبيق هذا المفهوم على تحليل الصور الفنية، ينبغي أولًا فهم كيفية استخدام الشعراء الظلال كوسيلة لخلق صور غنية بالمعاني والتعبير فالظلال الممتدة يمكن أن ترمز للغياب، الطاقة، أو حتى للسلطة والرفعة، وقد ترمز لامتداد حقبة تاريخية أو حالة نفسية، في هذا السياق، يُصبح التحدي أمام المحلل هو استخلاص المعاني المختبئة خلف هذه الصور.

ومن الأمثلة التي تنطبق فيها الظلال الممتدة على إحدى الصور الفنية لدى سمحان قوله في رثاء والدته:[2]

حـــــينَ اطمـــــأنَّتْ في ظِـــــلالِكَ نفْسُـــــها رَجَعَـــتْ فألْقَـــتْ سَـــعْيَها المَحْمُـــودا

فقد صور الشاعر صورة والته بعد موتها مطمئنة والظل الممتد لتلك الصورة النفسية يمتد إلى مالا نهاية فقد استخدم لفظة (في ظلالك) وظل الله دائم أبدًا وكأنما تلقي الصورة بظل الخلود على الطمأنينة التي صورها في تلك الصورة الفنية.

---

(2) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ، ص65.

(1) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ص259.

وفي موضع آخر يقول سمحان في رثاء شاعر الرافدين الأكبر عبد الرزاق عبد الواحد:[1]

بغـــــدادُ والقـــدسُ جُرحـــــانا وبيـــــنَهما أواصـــــرُ الشـــــوقِ للتحريـــــرِ تتَّـــــصِلُ

هـــــذي رفـــــاتُكَ في عمَّـــــانَ نحفظُهـــــا وبعـــــــدَ لأيٍ إلى بغـــــــدادَ تنْـــــــتَقِلُ

وهذه الصورة المهيبة صورة "الرفات" للشاعر الذي مات غريبًا عن داره، إذ بالصورة تلقي بظل ممتد على طول النص لما يعانيه أصحاب القضايا الوطنية من الاضطهاد والتغريب والتشريد والظلم، وكأنما جرح القدس وبغداد قد اتحدا فوحدا الغاية بالشوق للتحرير الذي في يقين الشاعر سيحدث، وعلى إثره سيتم نقل رفات الشاعر الذي مات بعيدًا عن أرضه إلى وطنه.

وهذا الظل يمتد ويرسم صورًا بعيدة ومستمرة يرسم صورة المعاناة التي يعيشها المناضلين، وعلى نقيضها يرسم صورة الأمل في التحرير وعودة الرفات إلى وطنه.

والظلال الممتدة عادة ما تأتي مع الصورة الكلية وأنماطها (النفسية، والذهنية، والواقعية، والحركية) وتأتي مع الصور الجزئية المركبة إذا كانت صورًا رمزية مركبة تمتد رمزيتها إلى التاريخ أو الثقافة أو التراث، فالظلال الممتدة قد تضرب في عمق التاريخ وقد تستمر على طول الزمن الحاضر أو قد تعالج حالة نفسية فتحكي معاناتها الممتدة، وقد تستشرف المستقبل، فالظلال الممتدة بوابة لعوالم أخرى.

الظلال المماثلة:

وهي في فن التصوير: الظلال التي تحافظ على شكل الجسم المسقط عليه الضوء وتناسبه تمامًا، دون تمدد أو تقلص أو تشوه. وتحدث هذه الظلال عادة عندما يتعامد مصدر الضوء مع سطح الجسم، بحيث تكون الأشعة الضوئية عمودية عليه. ورغم دقة الظلال المماثلة وصدقها البصري، فإنَّها قد تبدو جامدة وتقليدية وتفتقر إلى الإثارة.

أما في التصوير الفني: فدورها يكمن في تأكيد واقعية الصورة الفنية، وتحقيق التماثل والانسجام داخل التصوير باستخدام المترادفات، والصور الواقعية التي تؤكد الحقائق علمية أو تقرر حقائق تاريخية.

ومن النماذج الشعرية التي يمكن الاستشهاد بها على هذا النمط من الظلال قول سمحان عن بغداد: [2]

بغـــــداد.. والمنصـــــور شـــــيد صـــــرحها وأحلهـــــا فـــــوق الخيـــــال رشـــــيد

بغـــــداد حاضـــــرة العروبـــــة والهـــــدى وعرينهـــــا ورحيقهـــــا المعقـــــود

بغـــــداد في سِـــــفر الحضـــــارة متنـــــه والآخـــــرون هـــــوامش وجلـــــود

هنا تتماثل الظلال مع الصورة في حجمها ودقة وصفها فهذه الظلال المماثلة تبرز بغداد كمدينة تتجاوز الزمان والمكان في مجدها وعظمتها، مؤكدة على دورها الرائد في الحضارة والثقافة والروحانية ومنها:

(2) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ، ص232.

(1) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ، ص65.

- **ظلال العظمة والمجد:** حيث تُظهر كل من صور بغداد بوصفها معقل للحضارة مذ أنشأها "أبو جعفر المنصور" وطورها "هارون الرشيد" الذي أشار إليهما في الصورة بقوله (والمنصور شيد صرحها) (وأحالها فوق الخيال رشيد) وهي أيضًا مصدر إلهام وجمال، العظمة والمجد الذي تحمله المدينة. بغداد ليست مجرد مدينة عادية؛ إنها رمز للتقدم والجمال الذي يتجاوز الخيال.
- **ظلال الريادة والتفرد:** تظهر هذه الظلال في وصف بغداد بأنها في "سِفر الحضارة متنه" بينما "الآخرون هوامش وجلود". هذا يعكس مكانة بغداد المتفردة والرائدة في مجال الحضارة والثقافة، مؤكدًا على أنها القلب والجوهر، في حين أن الآخرين يأتون في مرتبة ثانية.
- **ظلال الثقافة والروحانية:** تُظهر الإشارة إلى بغداد كـ"حاضرة العروبة والهدى" و"عرينها ورحيقها المعقود" الثقافة الغنية والروحانية العميقة التي تميز المدينة. هذه الظلال تشدد على الأهمية الروحية والثقافية لبغداد في قلوب العرب والمسلمين.

فالظلال المماثلة تأتي لتوطد الصورة وترسخ فكرتها، وتنطبق تلك الظلال على الصور الكلية والصور الجزئية على حدٍ سواء.. فامتداد الصورة أو قصرها لا يؤثر في الظل فهو يمتد ويقصر على حسب الصورة المتاحة في النص، فكلما امتدت الصورة امتد الظل معها وكلما تحددت الصورة تحدد الظل معها.

ومن أكثر الصور التي ينطبق عليها الظل المماثل هو شعر الحكمة والوعظ فالصورة وظلها يتماثلان في الشكل والمدلول وإن كانت الظلال بضبابيتها تعطي عمقًا أكبر للصورة، ومن أمثلته: [1]

المـــوتُ حـــقٌّ.. لَـــهُ نعْنـــو ونَمْتَثِـــلُ ولا مفَـــرَّ إذا مـــا أطْـــبَقَ الأجَـــلُ

ومَـــنْ مِـــنَ الخَلْـــقِ لَمْ يشْـــربْ مرَارَتَـــهُ وهـــل نجـــا مـــنْ مرامـــي قهْـــرِهِ الرُّسُـــلُ

فالظلال المماثلة لتلك الصورة تظهر في:

- **ظلال الحتمية والقبول:** إذ يتم تصوير الموت كحقيقة حتمية لا يمكن تجنبها، وهذا يعكس ظلالًا من القبول والتسليم بأمر الله. "الموتُ حقٌّ.. لَهُ نعْنو ونَمْتَثِلُ" تعبر عن الاعتراف بالموت كجزء لا يتجزأ من الحياة والإيمان بأنه قدر محتوم لكل الكائنات.
- **ظلال الشمولية والعدالة:** الموت يمس كل الخلق بلا استثناء، من الإنسان العادي إلى الرسل. "ومَنْ مِنَ الخَلْقِ لَمْ يشْربْ مرَارَتَهُ" تعبر عن هذه الشمولية، وكذلك العدالة الكامنة في هذا الأمر؛ فالموت لا يفرق بين غني أو فقير، قوي أو ضعيف.
- **ظلال التحدي والمرارة:** الموت يأتي محملًا بالتحدي والمرارة لكل من يواجهه. "وهل نجا منْ مرامي قهْرِهِ الرُّسُلُ" تشير إلى الصعوبات والتحديات التي يفرضها الموت حتى على أعظم الناس، مثل الرسل، مما يعكس ظلالًا من التواضع والتسليم.

وهذه الظلال المماثلة التي تبرز من هذه الأبيات هي تأكيد على الحقائق الأساسية للوجود الإنساني: الحتمية، الشمولية، والتحدي الذي يمثله الموت. هذه الظلال تعمق فهمنا بأن الموت جزء لا يتجزأ من الحياة،

الظلال القصيرة:

(1) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ص232.

في فن التصوير: على النقيض من الظلال الممتدة، فإن الظلال القصيرة هي التي تغطي مساحة أقل من الجسم المضيء، وتبدو مكثفة وقريبة من حدوده الخارجية، وتنتج عن ارتفاع مصدر الضوء أو اقترابه من الجسم، بحيث تكون الأشعة شبه عمودية على سطحه.
بينما في التصوير الفني: فإن الظلال القصيرة في الصورة الفنية تسهم في تسطيح الصورة وتقليل حجومها، بما يتناسب مع الأهداف التعبيرية لها. فقد تستخدم كأداة للمبالغة الساخرة والتهكم، أو للتلميح إلى صغر شأن الصورة وهامشيتها. وعادة ما تستخدم هذا الظلال القصيرة في صور التهكم والصور الإيحائية والصور الساخرة وصور الومضة، والصور الجزئية المفردة، وهي إذ تقصر عن حجم الصورة الأصلية فإنَّها ذات مدلولات أشد عمقًا وحدَّة.
وعلى هذا النسق ورد في شعر سمحان عدة نماذج منها: (1)

مـــا كنْـــتَ يومـــًا مخلصـــًا ووفيًّـــا حتَّـــى ألومـــك إذ أســـأتَ إليَّـــا
بـــل كنـــت غـــدّارًا وكنـــتَ مخـــاتلًا وعلـــى المكـــارم قـــد ظللـــت عصيًّـــا
تهـــوى الهـــوانَ وتحتفـــي بحلـــوله وتـــرى بـــه شبعـــًا لديـــك وريّـــا
يا شســـع نعـــلٍ لا يـــرى في دوســـه إلا وجـوبـــًا نـــافذًا مقضيّـــا

ففي هذا الهجو اللاذع والتهكم الشديد تظهر لنا عدة صور منها:
غدار ومخاتل: يُظهر الشاعر صورة مكثفة للخيانة والمكر، معبرًا عن عدم الإخلاص والوفاء في العلاقة.
عصيّ على المكارم: تُظهر هذه الصورة رفض الشخص للقيم النبيلة والفضائل، وتكثف الفكرة بأن هذا الشخص لا ينجذب إلى الأخلاق الحميدة.
تهوى الهوان وتحتفي بحلوله: تُعبر هذه العبارة عن انجذاب الشخص نحو الذل والمهانة والاحتفاء بهما، مما يكثف الصورة السلبية له.
يا شسع نعلٍ لا يرى في دوسه: هذه العبارة تُظهر استخدام الشاعر للمجاز المرسل بوصف الشخص بأنه "شسع نعل"، وهي صورة تكثف الاحتقار وتعبر عن قيمة الشخص المستهجنة من وجهة نظر الشاعر، حيث يُظهره كجزء تافه ومتدني من شيء يُداس تحت الأقدام.
وتأتي الظلال القصيرة لتعمق الأثر المكثف والمباشر للصور الشعرية المستخدمة لوصف الشخص الموجه إليه الكلام والمعاني التي تنطوي عليها هذه الصور فنجد:

- **ظل الخيانة والمكر**: الذي يتمثل في الشعور بالخذلان والإحباط العميق الذي يشعر به الشاعر نتيجة للخيانة، مما يعكس عدم الثقة والأمان في العلاقة.
- **ظل رفض الفضائل**: الذي يُظهر الفجوة بين السلوك الأخلاقي المتوقع والواقع المؤلم، مما يعكس انعدام الاحترام للقيم النبيلة والأخلاق الحميدة.
- **ظل الانجذاب نحو الذل**: الذي يكشف عن القبول بالهوان كحالة مرغوبة، مما يعكس انخفاض القيمة الذاتية والاستسلام للمعاملة الدونية.

(1) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ص475.

ومن الأمثلة أيضًا على الظلال القصيرة أيضا ما ورد في قوله: [1]

يا جاحـــدَ الأفضـــالِ لسْـــت بنـــادمٍ ... إني مـــددتُ يـــدي إليـــكَ... لتعـــقرا

لكنَّـــــني أسِـــــفٌ لأن صنـــــائعي ... ذهبـــتْ لمـــنْ مـــا صـــانها أو قـــدّرا

يـــا أم عـــامرٍ التـــي ضربـــوا بهـــا ... مـــثلا علـــى الطبـــع الخبيـــثِ بمـــا جـــرى

يمكننا استخراج الظلال القصيرة المرتبطة بالصور الشعرية التي تقوم بتكثيف المعاني وتعزيز الأثر العاطفي للنص فمن تلك الظلال القصيرة:

- **ظل جحود الأفضال**: الذي يعبر عن الشعور بالخيبة والأسف من تجاهل الآخرين للمعروف وعدم تقديرهم للجميل الذي قدمه الشاعر في صورته "إني مددت يدي إليك".. "لتعقرا". هذا يعكس تجربة الإحباط والندم لإضاعة الجهود على من لا يستحق.
- **ظل الأسف على الصنائع المهدرة**: الذي يكشفه "أَسِفٌ" عن الندم والحزن على الجهود والأعمال الطيبة التي ذهبت سدى لأشخاص لم يقدروا قيمتها.
- **ظل الغدر والخيانة بذكر الطبع الخبيث لأم عامر**: الإشارة إلى "أم عامر وهي أنثى الضبع" كمثال على الطبع الخبيث وأيضا يشير إلى القصة الشهيرة التي أوردها الجاحظ في كتابه "المحاسن والأضداد" [2]: أن "جماعة من الأعراب أثاروا ضبعًا، فدخلت خباء شيخ منهم، فقالوا: أخرجها، فقال: ما كنت لأفعل، وقد استجارت بي فانصرفوا وقد كانت هزيلًا، فأحضر لها لقاحًا، وجعل يسقيها حتى عاشت، فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته. فقال شاعرهم في ذلك [3]:

ومـــن يصـــنع المعـــروف في غـــير أهلـــه ... يلاقـــي الـــذي لاقـــى مجـــير أم عـــامر

أقـــام لهـــا لمـــا أناخـــت ببابـــه ... لتســـمن ألبـــان اللقـــاح الـــدرائر

فأسمنهـــا حـــتى إذا مـــا تمكنـــت ... فرتـــه بأنيـــاب لهـــا وأظـــافر

فقـــل لـــذوي المعـــروف هـــذا جـــزاء مـــن ... يجـــود بإحســـان إلى غـــير شـــاكر.

الظلال القصيرة في هذه الأبيات تساعد في تكثيف الرسائل الشعرية وتقوية الانطباعات السلبية تجاه الأشخاص الموصوفين. بواسطة هذه الصور وظلالها، ينقل الشاعر مشاعر الخيبة والندم والإدانة بطريقة مباشرة وقوية، مما يعزز من الأثر العاطفي، بظلال قصيرة متتالية متتابعة أقصر من حجم الصور المستخدمة التي تجسد في حد ذاتها صورًا بيانية وبلاغية عديدة، لكن ظلالها أتت بوتيرة سريعة ترسم صورًا بالظل القصير حادة ومركزة ومتتابعة.

الظلال المغايرة:

(1) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط ، ص656.

(2) الجاحظ، عمرو بن بحر البصري، **المحاسن والأضداد**،ج1 د.ط، ص55.

(3) المرجع السابق ج1 ، ص55.

في فن التصوير: وهي الظلال التي لا تطابق شكل الجسم المسقطة عليه، بل تأخذ هيئة مختلفة ومحرفة وغير متوقعة، بسبب عدم استواء السطح المعترض للضوء، أو وجود أجسام شفافة أو عاكسة في مسار الأشعة الضوئية. وتُوظف الظلال المغايرة في فن التصوير بهدف خلق تشويش بصري وإدهاش للمتلقي، أو لنقل إحساس بالقلق والاضطراب والتشظي، أو للتعبير عن فكرة التحول والتغير

أما في التصوير الفني: فالظلال المغايرة تلعب دورًا بارزا في تحقيق المفارقة والإدهاش فالمتوقع من الصورة قد تلقي الظلال المغايرة ظلا غيره فيضع المتأمل للصورة الفنية في حيرة من أمره، إذ إن الظاهر من الصورة يختلف عن الظل الذي تلقيه تلك الصورة، وذلك يفتح المجال للمتلقي لإعمال العقل واتساع مدارك التخييل لديه ليرسم صورًا في مخيلته بالظل الناتج من تلك الصورة.

ويمكننا التمثيل على ذلك بالأبيات التالية إذ يقول سمحان: [1]

مـــنْ عـــاشَ مِثْـــليَ مَنْفِـــيًّا بِـــلا وَطَـــنٍ ... كهـــائِمِ الطَّيْـــرِ في الآفـــاقِ يَـــرْتَحِلُ

يسْـــعى ويسْـــعى إلى وَصْـــلٍ وتَخْـــذِلُهُ ... كُـــلُّ البِـــلادِ فَـــلا يَدْنُـــو ولا يَصِـــلُ

وحَـــوْلَهُ أُمَّـــةٌ بَـــاعَتْ كَـــرامَتَها ... وشـتَّتَتْـــها علـــى أهْـــوائِها السُّـــبُلُ

واسْـــتَبْدلَتْ عِلْمَهـــا بالجَهْـــلِ فاتَّخَـــذتْ ... مِـــنْ خصْـــمِها صـــاحِبا جـــادَتْ بـــهِ الحِيَـــلُ

وأســـــلَمَتْ لِزُنـــــاةِ الأرضِ عِفَّـــــتَها ... يـــــا للدَّيـــــاثةِ لا عيْـــــبٌ ولا خَجَـــــلُ

واســـتَقْبَلَتْ بالرِّضـــى الطَّـــاغِي عَوَاصِـــمُهمْ ... يهـــودَ خيْـــبَرَ واعْتَـــزوا بِمـــا فعَلـــوا

فالظلال المغايرة هنا ترتبط بالتناقضات الحادة بين الواقع المعاش والتطلعات أو القيم المثالية التي تحلم بها الأمة وهذه الظلال المغايرة للواقع ليست هي المصورة بل المصور هو الواقع التعس الذي تحياه الأمة وهذه الظلال إذ تلقى في خلد من يقرأ الأبيات ويتأملها يجد أنها هي المقصودة في ذاتها وليست الصور الحزينة الواردة في الأبيات، فمنها على سبيل المثال:

- **الغربة مقابل الانتماء**: الشاعر يقارن بين حاله كمنفي بلا وطن وبين الطير الذي يرتحل في الآفاق بحثًا عن مكان. هذه المقارنة تخلق ظلالًا مغايرة بين الحرية المفترضة للطير والقيود النفسية والجسدية التي يواجهها الشاعر.
- **السعي وراء الوصل مقابل الخذلان**: الشاعر يصور محاولاته المستمرة للوصول والاتصال، لكنه يواجه خذلان البلاد والأمم، مما يخلق ظلالًا مغايرة بين الأمل في الوصول والواقع المرير للفشل والرفض.
- **بيع الكرامة مقابل الحفاظ عليها**: الشاعر ينتقد الأمة التي باعت كرامتها، مما يخلق ظلالًا مغايرة بين القيم المثالية للشرف والكرامة والواقع الذي يشهد تفريطًا في هذه القيم.
- **استبدال العلم بالجهل**: هذه الصورة تخلق ظلالًا مغايرة بين التطلع إلى التنوير والتعلم وبين الواقع الذي يتميز بالتخلي عن العلم لصالح الجهل والتبعية.
- **الدياثة وفقدان العفة**: الشاعر يستخدم صورة الدياثة للتعبير عن الخيانة الوطنية والثقافية، مما يخلق ظلالًا مغايرة بين القيم الأخلاقية المثلى والسلوكيات المشينة التي يُدينها.

([1]) سمحان،محمد عبد القادر، **ملحق الأعمال الشعرية**، د.ط، ص397-398.

- **الرضا بالطغيان مقابل المقاومة:** الشاعر ينتقد الرضا والقبول بالطغيان، مما يخلق ظلالًا مغايرة بين الرغبة في الحرية والاستقلال وبين الاستسلام للقوى الغاشمة.

هذه الظلال المغايرة تعمق فهمنا للنص وتبرز التناقضات الحادة بين الواقع المعاش والقيم والتطلعات التي يرنو إليها الشاعر، مما يثري النص بالمعاني ويدعو المتلقي للتأمل والتفكير.

نخلص من هذا العرض إلى أن ظلال الصورة الفنية بأنماطها المتعددة، سواء من حيث الشكل أو من حيث التأثير، تُعد وسيلة ثرية وقوية لتحليل العمل الفني وسبر أغواره الدلالية والشعورية. فهناك توافق كبير بين آراء النقاد والباحثين على أن " الصورة هي بالتحديد وليدة إدراك بصري، فإن تمثيل الأشياء داخلها يعود إلى تحويل أنطولوجي لماهيات مادية وتقديمها على شكل علامات، أي النظر إليها باعتبارها عناصر تدخل ضمن أنساق سيمائية يعد الإدراك البصري نفسه بؤرة تجليها. وهذا ممكن فقط من خلال المضمون الذي يمكن أن تأتي به النظرة في تلاحمها بالمنظور إليه "[1].

(1) بنكراد، سعيد، **سيميائيات الصورة الإشهارية: الإشهار والتمثلات الثقافية**، ط1، ص 22.

المراجع (**References**)

1. Abdel Hamid, Shaker. Al-Tafdeel Al-Jamali: Dirasah fi Saykolojiyat Al-Tathawuq Al-Fanni. 1st ed.
2. Abd al-Fattah, Mohamed. Fan al-Tasweer al-Fotoghrafi: Al-Ta'reed wal-Idaa'ah. 1st ed.
3. Aflaṭūn (Plato). Al-Jumhūrīyah (The Republic). Hindawi Edition, Vol. 7. Riyadh: Hindawi Foundation, 2023.
4. Al-'Ashmawi, Mohamed Zaki. Qadaya al-Naqd al-Adabi bayna al-Qadeem wal-Hadeeth. n.d.
5. Al-Barghouthi, Samih Basheer. Al-Tasweer al-Fotoghrafi bayna al-'Ilm wal-Fann. 1st ed.
6. Al-Jāḥiẓ, 'Amr ibn Baḥr al-Baṣrī. Al-Maḥāsin wal-Aḍdād. Vol. 1, n.d.
7. Al-Khalidi, Salah. Nadhariyyat al-Tasweer al-Fanni 'inda Sayyid Qutb. 1st ed.
8. Al-Midani, Abdul Rahman Hasan Habannakah. 'Ilm al-Badee'. 1st ed.
9. Al-Marzouqi, Samir & Shaker, Jameel. Madkhal ila Nadhariyyat al-Qissah: Tahlilan wa Tatbeeqan. n.d.
10. Al-Mukhashkhash, Abdul Aziz. Asasiyyat al-Tasweer al-Fotoghrafi. 1st ed.
11. Al-Shawkani, Muhammad ibn 'Ali ibn Muhammad ibn Abdullah. Fath al-Qadeer. Vol. 4, n.d.
12. Benkrad, Said. Simyā’iyyāt al-Ṣūrah al-Ish'hāriyyah: al-Ishhār wal-Tamaththulāt al-Thaqāfiyyah. 1st ed.
13. Bin Saeed, Samira Nouri. Qimat al-Daw’ wal-Zill lil-‘Amal al-Fanni bi-Uslub al-Tahsheeri. Majallat al-I'lam wal-Funoon, Vol. 1, Issue 4. Tripoli: University of Tripoli.
14. Jum’ī, al-Akhdar. Al-Lafẓ wal-Ma‘nā fi al-Tafkīr al-Naqdī wal-Balāghī ‘inda al-‘Arab. n.d.
15. Miftāḥ, Mohamed. Mishkat al-Mafahim: al-Naqd al-Ma'rifi wal-Muthāqafah. n.d.
16. Nadhmi, Azeez. Athar al-Zilal 'ala A‘mal al-Tasweer. al-Dawriyya al-'Ilmiyya likulliyat al-Funun al-Jamila – Jami'at al-Iskandariyya.
17. Qutb, Sayyid. Mashāhid al-Qiyāmah fi al-Qur’ān. 5th ed.
18. Shalabi, Rahab Mas'oud. Madā Ta’thīr al-Ḍill wal-Nūr ‘ala al-Jidāriyāt al-Mu‘āṣira. Majallat al-Turāth wal-Tasmeem – Kulliyat al-Funoon al-Jamīla, Jāmi‘at al-Iskandariyya.
19. Smohan, Mohamed Abd al-Qadir. Mulhaq al-A‘māl al-Shi‘riyya. n.d.
20. Wahbah, Magdi & Al-Muhandis, Kamil. Mu‘jam al-Muṣṭalaḥāt al-‘Arabiyya fi al-Lughah wal-Adab. 1st ed.
21. Wahibi, Fatimah Abdullah. Al-Zill: Asatīruhu wa Imtidadatuhu al-Ma‘rifiyyah wal-Ibdā‘iyyah. 1st ed. Riyadh, 2008.